الادراك والفطرة

من محاضرة القيت في النادي الاسكندري

الواحد اقل من الاثنين . ومن المستحيل اجتماع الضدين . والشيء لا يخلو من وجود او عدم . والموجود لا يخلو من حدوث او قدم . كل هذه المعلومات مبتدأة في النفس . مغروزة في اصل الخلقة . يأنس الفهم بها . وتقبل النفس عليها . ويرسلها اللسان من غير قلق ولا اضطراب . فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله

كذلك المرئيات يبصرها النظر . والاصوات يدركها السمع . والمطعوم يأنفهُ الذوق . والروائح يشعر بها الشم . والاجسام يحس بها اللمس . كل هذه الاشياء واقعة عن درك الحواس . وطريق المشاعر . فهي تختلف باختلاف جوهرها . وتتأتى طريقتها طريقة الفطرة على خط مستقيم . وهذا معنى الادراك

مظاهر الادراك عند الانسان من اقوى المظاهر واتقنها صنعاً واحكاماً . ونقشاً وابراماً . ويكفينا ان ننقب عما يحيط بنا من الاسرار . ويجري في نفوسنا من خفايا الاشياء . كي نقف على حركات العقل ونتائجهِ . ونتبين قواهُ المدركة فنبدأ بملاحظتها . وتشريح عناصرها . ثم نقارن بينها وبين الكائنات الاخرى اذا اردنا ان نعرف قواها ونستجلي وجه الاسباب التي تسوقها الى الحركة والعمل

فمن المعلوم ان ملامسة المواد الخارجة رأساً او بتوسط احد العوامل الاخرى في ربط تأثيرها بالاعضاء المتصلة بها تبعث في اجزاء الجسم الحساسة نزعة غريبة لا يعلم منشؤها واسباب حدوثها . وغاية ما يمكن معرفتهُ هو حدوث حركة تأثر انطوت عليها الاعصاب بالتنبيه . وانطبعت صورتها في الفكر فأدت الى توليد حركة الاحساس في هيكل الجسم باجمعهِ . فالاحساس امر اجنبي عن ذات التأثر او التنبيه الذي هو احدى نتائجهِ ويقع بادراك النفس الحقيقية لهذا التأثر وتمثله لذاتها

وليس من الضروري ان يتبع وقوع الاحساس ذات التحريك الصادر للجسم من المواد الخارجة او يتعلق بها لانهُ كثيراً ما لا تتوجه حركة الاحساس عند التأثيرات الواقعة على الاجزاء الحساسة في حين ان حركة التنبيه او التحريك قد درت بها الاعصاب في الدماغ وذلك بسبب ان تأثير هذا التنبيه على المخ قد نقصى عن منصوله وتعرى عنهُ بحكم القوة الباطنية التي يطلق الفلاسفة عليها لفظ « الذات » ويدعوها الناس باسم « النفس او الروح » . واذن

تكون قوة الحس من خصائص النفس وما يائل ذاتها وهي تعتبر اس المعقولات ومبدأها

اذا تبين ذلك سهل علينا القول بان النوم لا يغير شيئاً من حالة الحواس فهي تتأثر بنفس تأثرها في اليقظة . ولكن هذا التأثر لا يشعر الجسم بحركته اما بسبب ان المخ قد تعرى زمناً عن خاصيته في نقل الحركات الى النفس او بسبب ان النفس ذاتها قد تتدت حركتها وقوتها . ومن هذ القبيل ما حكاه ثمامة بن اشرس قال بعثني الرشيد الى دار المجانين لاصلح ما فسد من احوالهم فرأيت فيهم شاباً حسن الوجه كأنه صحيح العقل فكلمته فسألني جملة مسائل لم احر فيها جواباً من جملتها قوله لي : متى يجد الالم لذة النوم ان قلت اذا استيقظ فالمعدوم لا لذة له وان قلت قبل النوم فكذلك وان قلت حال النوم فلا شعور له . قال ثمامة فبهت لقوله وسألته الجواب فقال ان النوم داء ولا لذة مع وجود الداء

اما تأثير النفس على الاحساس فجلي واضح في حال اليقظة والانتباه لانه من السهل ان تساق الروح بقوة الارادة ويتجه جوهرها او يحصر في مبدإ من مبادىء التحريك او التنبيه فتتلقى عنه الاحساس بشدة وتختلف فيها درجة التأثير عنها في الاحوال الاعتيادية . والدليل على ذلك ان الانسان اذا ضمه مجلس من المجالس وقامت فيه الاحاديث على مبدإ الاعتدال والتكافوء في القوى المنطقية تراه يصيخ بسمعه الى من يهمه حديثه او الذي يجلي له قوله في معرض التصويب والاستجادة فيتبع الحديث نقطة نقطة ويستجمع قوى السمع كلها للتدبر والامعان حتى لا يكاد يسمع سواه . وكثيراً ما يحدث الفكر دواعٍ تنوزعه وتصرف وجوه النظر عن مشاهدة المرئيات فتخفى على النفس مدارك الحس و يضرب دونها بحجاب . وهذا الشيء دائم الوقوع بل ربما حصل لذوي الامراض عقب هموم تزدحم على الخاطر وشواغل تستغرق الفكر فلا يشعرون بتكاثر الجراح ولا الم الداء

وهنا نقول ان مدارك الاحساس الذي تتلقاه النفس عن المواد الخارجة عنها او الذي يجري اليها عن طريق الاعضاء نفسها قد تختلف صفاتها من حيث اللذة والالم زيادة ونقصاً . فالطفل مثلاً اذا ابتدأت مشاعره ان تتأثر بالمؤثرات وتنغرط في مبادىء الاحساس النفسي تجده يتململ من حيرته في تعليل تلك التأثرات وتعليقها على اسبابها ومناشئها . ولكنه لا يلبث بعد ذلك ان يدفعه ميل الاستدلال المركب في غريزته واصل فطرته الى تلمس ما يحيط به من الاشياء ويكتنفه من المواد

هذا الميل هو الذي ينزع بالنفس الى الترتيب والاحكام وربط الاسباب بالمسببات . ويحملها على الولوج في دائرة البحث عن العلة ودواعي كونها في الظروف التي تسبق كل حادثة

او تتبعها . هذا الميل هو الذي يسوق النفس الى الحوم حول الاشياء المحيطة بها وانتزاع المسببات من قلبها . ولا تتريث التجربة وطول الاختبار عن اثباتها والجزم بصحة تعليلها . والسبب في ذلك ان تفسح الحواس البشرية وتباين الطرائق التي تتأثر بها في مناحيها وواردتها قد تدع مجالاً واسعاً للاشتباه بوقوع توارد دائم . ومصادفات مستمرة في اقتران الحواس عند تأثرها باشياء كثيرة طافت بها او تلفت حسّاً منها

مثال ذلك اذا شمّ الطفل رائحة عطرية او سرى الى انفه ارج زكي تراه يبحث عن سبب هذا الاحساس ودواعي حدوثه . فاذا عرض له ان يلمح زهرة او يلمسها يبدو ابتداءً الحقيقة تتجلى امامهُ واخذ يجزم بانها منبعث تلك الرائحة التي ولجت حاسة الشم فيهِ ودارت بتجاويف دماغهِ . وان هو انتقل من مكانهِ او ركدت ريح تلك الزهرة ثم طاف بانحاء حواسهِ شيءٌ من المواد الخارجة مما لهُ بعض التأثير على اعضائهِ قويت معهُ تلك النظرية وسكنت نفسهُ الى الاعتقاد والتيقن بوجود امور مباينة لذات حواسهِ قد اثرت عليها بخصائصها المختلفة وتركت وراءها من آثار الانفعال والتهيج ما لا يزال باقياً في نفسهِ ممثلة بهِ مشاعرها

والحكمة في تعدد مدارك الحواس ان الانسان يمكن بواسطتها ان يتبين ماهية المؤثرات وصفاتها بمجرد اللمس والشم او النظر والذوق الخ . وكل هذه الحواس — ماعدا حاسة اللمس — لا يكتفي بذاتهِ في تأدية وظيفتهِ اخلقية بل لا بد من ان يستمد المعاون من الخارج ليعينهُ على عملهِ . اما حاسة اللمس فتجري على مبادئ التحريك طولاً وعرضاً . وارتفاعاً وهبوطاً . واخذاً ورداً . وقبضاً وبسطاً . دون الافتقار الى معونة عوامل أخرى بل ربما تلقى الجسم عنها احساسات جمة من شأنها ان تحدد ماهية المحسوس وتعين صفاتهِ

والفضل في معرفتنا معنى الاحساسات التي نشعر بها راجع الى طول الاختبار والتجربة ولكن الفكر وسلطانهُ القوي لا يقف عند حد الاخذ عنها بطريقة ما فهو يحكم من وراء ذلك طوراً وعكساً دون كد ولا معاناة وحكمهُ بعد ذلك يكون حكماً صائباً يماس الحقيقة ويدني الى الرجاحة والثقة

***

تكلّم في محصل هذه الامور بعض علماء وظائف الاعضاء فما اصابوا تحقيقاً ولا اجادوا . ذلك انهم ذهبوا الى القول بان الحواس البشرية تسير بطبيعتها في طريق الكمال وهي انما تحتاج الى توسع ما من التمرين والتربية حتى تتدرج في معارجها الكمالية . والحقيقة ان مدارك الحواس التي تتلقى التأثيرات الخارجية لا ينالها ادنى تغيير في شكلها وقوتها بل يصح

اطلاق هذا الزعم ومراعاة تطبيقه على الاشياء الاخرى التي تقدر درجة الاحساس وتقارن تأثيره ثم تصدر بعد ذلك حكمها عليه من حيث القبول او الرد . ولا يوجد شيء سوى العقل يؤدي هذه الوظيفة السامية وهو بطبيعته قابل لكل التغيرات والتطورات من الطفولة الى المراهقة الى الصبا الى الكهولة الى الهرم مع التزامه في كل دور بحال وفي كل حال بشأن

وفي النفس ايضاً قوة أخرى تعتبر كلوح زجاج المصورة الشمسية من حيث الايداع والتخزين ولكنها تتميز عنها باستيعابها ملايين من الصور والاشباح والاشكال والمعاني المتعددة المتباينة التي تتوارد عليها في كل حين وترتسم في مادتها بحجم « اكبر من السماء وما حوت . والارض وما وعت . والفضاء وما طوى » . —

تلك الحافظة . وهي قوة عجيبة لايداع المدركات كلها متخيلة وغير متخيلة وحفظها لوقت الحاجة اليها . وعضوها مؤخر الدماغ . ومن خصائص هذه القوة انها ترتقي الى الفكر فتلقي اليه المدركات التي مرت عليها والآراء المستنبطة منها مما ولده الاحساس والتأثر . ويظن البعض ان المدركات باجمعها والآراء التي تتولد عنها تمر مراراً في وقتها ولا تلبث بعد ذلك ان تتلاشى او تغور في هاوية الخفاء . والحقيقة انها لا تتذكر مرة واحدة ولا تتلاشى باجمعها بل يمكنها ان تتمثل للفكر بتأثير الارادة عليها دون ملابستها لشيء من شعور النفس الحالي او اختلاطها به . وعلى ذلك فقوة الحفظ قوة ثمينة لمدارك الحس وهي فوق ذلك تؤدي وظيفتها بسهولة عظيمة متى اشتدت قوة الشعور المنبعث من عالم الحوادث او تعدد وقوعه ومعاودة التعين له

وبعبارة اجلى نقول ان الادراك متى اقترن ببعض الانفعالات المستقرة في نقطة محصورة ضمن دائرة الدماغ وكانت هذه الانفعالات صادرة عن محسوس قوي او عن تجمع واحتشاد في قوى المحسوسات الضعيفة — متى كان ذلك — اشتدت قوة الحافظة وانغرزت تلك الانفعالات في مادتها وسهل عليها ان تعيد ذكراها وتمثلها للفكر كما تلقتها ولو بعد الوف من السنين

وهناك عوامل معنوية أخرى تؤثر على قوى الادراك صحةً ومرضاً كالعمر مثلاً . فالحافظة في مقتبل السن وحدقة البلوغ قوية مشتعلة . وفي عند الشيخ قليلة الحفظ والتعليق بل لا تكاد تستوعب شيئاً ما من الافكار التي تمخض عنها بطون الانفعالات او التأثرات النفسانية . وهكذا كلما ارغل الانسان في صحارى الشيخوخة او ضرب في تعاريج سنيها ضعفت حافظته وكلت مداركه وطوبة الهرم والكهولة . وربما ظهر ذلك في اليافع واليافع

فالاول اضعف حفظاً واقل تذكراً . والثاني اكثر تعليقاً واحد فكراً

ويؤيد هذا القول ما نراهُ كل يوم امام اعيننا من ان الشبان المتعلمين يحفظون بسهولة مدهشة العلوم التي لا تحتاج الى فضل اجهاد في الفكر او معاناة في القوى العقلية كالتاريخ والجغرافيا واللغات وسائر العلوم الوصفية . وربما كانت هذه هي العلة في منشإ ضعف التلاميذ في الرياضيات وغيرها فحسبي ان لفتُ نظارة المعارف الى هذا الامر فتضاعف عنايتها وتجعل مدة الدراسة التحضيرية والابتدائية قاصرة على العلوم العقلية دون غيرها حتى اذا شب الطفل وترعرع سهل عليهِ الاشتغال بتحصيل علوم الجغرافيا والتاريخ واللغات وغيرها

ولا ينبغي ان يفهم مما تقدم اني انكر فائدة التمرين والممارسة العقلية بل الامر بالعكس لاني اول من يقول بفائدة ذلك ويحض الشبان على تعهد الحافظة والقوى العقلية بالتمرين والمعاودة فقد اثبت الاطباء ان الحافظة قد تتعدم قواها وتتلاشى باجمعها في بعض الامراض العقلية ومع ذلك فالمريض لا يزال يتأثر بالمؤثرات الخارجة ويستنتج بعض الامور التي قد تنطبق تماماً على ما حولهُ من الاشياء

ومن النادر جداً ان يتأثر الادراك البشري بمؤثرات مختلفة النوع . اما مجموع الانساني فاهلهُ مختلفون في تعقلاتهم الصادرة عن شعور واحد . ولما كان الاحساس الشديد هو الذي يبقى اثرهُ على الدوام في خزانة المخيلة مطبوعاً بطابع الحفظ والتعليق كان من السهل توقع التغيير والتلون لتلك القوة التي سماها الى الفكر كل هذه التعقلات المتباينة . وتلك حقيقة لا ينكرها الآكل متعسف فللانسان الواحد حافظات متباينة تتعدد مظاهرها بتعدد مظاهر الاحساس فيهِ فمنها حافظة الكلمات وحافظة الاماكن والجهات . وحافظة الاشكال والصفات . وحافظة المعاني المتعلقة بالشخصيات الخ . ولكن من الصعب بل النادر جداً ان تكافأ تلك الحافظات في الانسان الواحد وتقوم على مبدإ الاعتدال في القوة والدرجة . ولقد شهد الاطباء في بعض امراض العقل وثورات الجنون نضوب احدى الحافظات في المريض وتلاشيها دون ان يصيب اخواتها ما يعطلها عن سيرها او يقف بها في الحركة عند حد محدود

اما اختلاف التعقلات المار ذكرهُ فاكثرهُ ناشئ — على ما يلوح لي — من تباين في الاستعداد الفكري وعجز تام عن استيعاب جميع الآراء التي تتوارد على الذهن دفعة واحدة او في ادوار شتى . ويظهر ذلك من توقف الانسان في بعض الاحيان وحيرتهِ في البت في امر من الامور العقلية . او السير في عمل يستلزم اشغال الفكر وتظهر فيهِ حقيقة الوجدان

قلنا فيما سبق ان للفكر « حكماً » يصدرهُ على معاني الاحساسات التي تتلقاها مشاعرنا

عن المواد الخارجة ونقول الآن ان هذا الحكم ليس مقصوراً على ما رأيناهُ من استنباط الآراء وتكوينها عن وجود الاشياء التي اعتبرناها اصلاً للشعور او عدمها لان هناك قوة اخرى ترتفع اليها الاحكام فتعرض منقولة على ما عندها من التعقل والحجى . وتمسك عقدة التوازن بين مفاصلها . وتتناولها نقداً وتمحيصاً مع مطالبة ذاتها بالتوسط والاعتدال . هذه القوة هي العقل . وكل نتائجها وتفاريعها ترتقي بطبيعتها وتنمو حتى اذا بلغت حد الكمال والرجاحة اقترنت بقوة التفكير والتأمل وهي الاستبصار فيما انطوت عليهِ مداركنا من التأثرات والنظر فيما يفيض منها على القوى النفسية الاخرى

ولا شك ان للخيال اتصالاً كبيراً بتلك الحواس وارتباطاً بها فهو يصور مدارك النفس بالصورة المناسبة لهُ ويخلطها بزوائد وغواش من كم وكيف فاذا اراد تصوير الانسانية مثلاً من معناها عسر عليهِ ذلك ووقفت قوتهُ عند حد استشابها بصورتها المخلوطة المنتزعة من الحس وان فارق المحسوس . اما الارادة فهي القوة التي يتجه معها الادراك نحو الاحساسات النفسية ليتتبع آثارها ومظاهرها . ويخلو بالعقل لاستقصاء نتائجهِ واعمالهِ . وطالما اخذت بزمام الفكر الى طريق محدود لينهج منهاجهُ ثم سلختهُ عن بعض افكارهِ وانتقت منها ما ترجح كفة مدادهِ واصابتهِ . وهي قوة هائلة من وجهتها الادبية لا نرى حاجة لاطالة البحث فيها الآن وحسبنا ان نقول انها ربما ظهرت باقوى المظاهر واكملها في الصوفية

واذا تركنا تلك القوى جانباً ونظرنا الى الانسان من حيث فطرتهُ نجدهُ قد امتاز عن غيرهِ من المخلوقات بأميال فطرية تسوقهُ الى العمل بنتائج العقل او تزيد لهُ الآراء سديدها ومتينها بحسب نزعتهِ واستعدادهِ واخلاقهِ . فميلهُ الى الخير والشفقة على عباد الله والحب والعدل وغيرها من الفضائل الادبية كل هذه صفات ولدت معهُ طفلاً ونمت بنموهِ فيجب ان تدخل في حيز استعدادهِ النفسي وتلابس اميالهُ الغريزية التي ترشح اليهِ بما يعينهُ على ادراك الحوادث ودواعي كونها ومناشئها . وهي تختلف في الرجال اختلافاً كبيراً فترى في الناس من اليقظ الحي الى المدمن الصريع . ومن الوقور المهيب الى الماجن الخليع

وينبغي ان نشير هنا الى شدة الشبه بين تلك القوى وبين خصائص اخرى وجدت في النفس وعرفت باسم « الطبائع الحاسة » وهي استعدادات طبيعية ظهرت آثارها في الانسان وعرف بها كالحب وحماية اولادهِ ومعاشرة امثالهِ وغير ذلك . وكلها طبيعية الا الحب فهو مشوب بشائبة الرياء والتصنع عند الانسان

اما الغرائز فصفات اخرى لا دخل لها فيما تقدم . فهي اميال واندفاع يقضيان بالمرء الى

اتيان امور لم يقدرها احس ولم تستحسنها الارادة . وهي عند الحيوانات فسيحة الدائرة فتجري اعمالها في فضاء متسع تسوقها فيه الى تلمس معاشها ومقياته وتميل بها التحصن والدفاع والقيام لروعات الخطوب على قدم

***

شيء عجيب يستجلب النظر . ويوقظ اذهان المتفكرين . ذلكم امر حركتنا الجثمانية . فمن الجلي الواضح ان للانسان تحركاً ذاتياً شديد التباين لمقوم الارادة . وبعيداً عن تأثيرها وسلطتها . وكثيراً ما اوهش هذا الامر جمهور الفزيولوجيين واخذ بهم بيد التعجب فهم في تعليله يتخبطون في مختلف الاسباب . ويذهبون كل مذهب في القول والتفكر . ونحن ذاكرون في هذه العجالة مجمل آراء العلماء والباحثين مما يجلو الحقيقة ويزيل الشكوك من الصدور . فمن الثابت عيناً ان حركة الجسم تجري على مبدأين : احدهما عقلي مادته الفكر وينبوعه صحة القريحة . وحسن البديهة . وطول التجارب . ومرور الزمان . والثاني غريزي يسوق النفس الى الحركة والعمل بحسب نزعاته الفطرية فتندفع فيه بطاعة عمياء دون ملابسة المدارك . او اتحاد مع اصول المشاعر النفسية . ومن هذا القبيل ما نجده في الآباء من الحنانة على الابناء وما نشاهده في المولود من استلامه ثدي امه . واطمئنانه الى مسه وارتشافه

على ان الاعمال العقلية اذا توالت وتكرر وقوعها مرة بعد اخرى سهل على النفس مباشرتها وتعهدها دون مشارفة الارادة عليها بل ربما رسخت في النفس وتمكنت منها فتنزلت منزلة الطبع والعادة شأن اغلب الملكات الناشئة عن الافعال والمماثلة للغرائز الطبيعية

ويحسن بي ان ابين الفارق بين الغريزة والعادة فالاولى حصلت عن سابق استعداد في النفس لظهورها والثانية استعداد خصيص في النفس يحصل بالممارسة والدربة فهي كما قال الشاعر الافرنجي . تكون اولاً كخيط دقيق من الحرير ثم تغلظ رويداً رويداً حتى تصير سلسلة كبيرة من الحديد

بقي علينا ان نتقلب فذلكة البحث في ماهية الادراك عند الحيوانات ونتبين العوامل التي تسوقها الى الحركة والعمل وهو بحث شاق متعب يحتاج الى مجهود عظيم . ودقة تامة . لانهُ لا يمكننا ان نرقب عن كثب حركة الحيوانات ومداركها كما هي الحال في الانسان بل الامر مقصور على التفرس في وجه الاعمال الصادرة عنها والحكم بعد ذلك بما يرشح به الفحص من نتائج الفكر . ودقائق النظر . ولا يخفى ما في ذلك من وسع مسافة الخلف بين الافكار وافساح دائرة التفاوت في العقول مما نخشى معهُ ان لا يكون لقولنا هذا رنة مستحبة في آذان

المتعقبين لها . وغاية ما يطمح اليه مثلي ان يتفاهم مع مخالفيه في الرأي لانهُ اذا حصل التفاهم والاستخراج من الطرفين فقد تمت الغاية المتغاة . وان قصر احدهما فقد التوى الامر وعدم النفع

فمن المعلوم ان للحيوانات احساساً وشعوراً تدرك بهما حركة المواد الخارجة مبصرة ومسموعة وملموسة ولكن المشاهد في الحيوانات التي ظهر تكوينها على وجه البساطة في الخلقة والسهولة في التركيب النوعي ان الاحساسات لا تولد فيها تحت مبدإ من مبادئ الادراك المجانس للادراك البشري من حيث الوقوف على دواعي التأثرات ومعرفة ما يحيط الجسم من محسوسات الاشياء ومدركات الامور

اجل اننا لا نجد في هذه الكائنات ادنى علامة من علامات الادراك المذكور لان مقومات ارادتها لا تظهر الاَّ في الامور البسيطة جداً مما تحمله على منهاج حفظ الذات كمثل تغييرها خط السير عند وقوع عارض في مدرج سبيلها . وهذه في الغالب انوى مظاهر الادراك عند الحيوانات . ولكننا اذا اطلنا البحث في طبائع الحيوانات نجد اشكالاً كبيراً في احوالها . وتبين انقلاباً هائلاً في افعالها وحركاتها حتى انهُ ليتعذر تعليلها بغير الحدس بوجود غرائز طبيعية بالغة حد الكمال والاتقان في نفوس تلك الكائنات واعطاء كل فرد منها في اصل خلقته صورة من المواهب والقوى التي تنتفع بها حركة الروية والتوجه نحو التعقل . ومجرد النظرة السطحية الى النملة او النحلة وغيرها تكفي للايمان بهذا القول . والركون اليه

« فقد حدثوا ان بستانياً اهتدى اخيراً الى دليل جديد يدل على ما للنمل من الذكاء الوقاد . ذلك ان اسراباً من النمل كانت تتسرب الى حقاق البستاني المملوءة بالبذور و يذهبن بها الى مساكنهن واحدة بعد أخرى . ففكر البستاني في وسيلة يتذرع بها للفتك بتلك الاسراب فهداهُ فكرهُ ان يضع الى جانب حقة منها عظماً ذا لحم . فعدلت اسراب النمل عن الحقاق وتهافتت على العظم تهافت الجياع على القصاع . وكان البستاني كلما تجمع الآلاف من النمل على ذلك العظم يأخذهُ بيده و يلقيه في مجل (دلو مملوء ماء) . فرأى ان هذا العظم خير شرك لاصطياد النمل . ثم فكر في تعزيز هذا الشرك بشيء آخر وهو انهُ وضع العظم في وسط الورقة الزجة التي يصاد بها الذباب . بيد ان اسراب النمل الذكية علمت ان مادة هذه الورقة مهلكة لمن فاتخذت على الورقة طريقاً من الرمل تصل بين من جانب الورقة الى العظم . وقد جئن بالرمل من جانب كومة هناك واشتغلن بهذا الطريق اربع ساعات كاملة . فلما امتسهُ جعلن يقصدن العظم مشى مشى دون ان تمس قوائمهن تلك الورقة المهلكة »

والظاهر ان للحيوانات التي تشابهُ الانسان في تركيبهِ كالقرد والكلب مثلاً حظًّا ما من المواهب السابق ذكرها اما الحيوانات الاخرى فترجع عملها الى الفطرة والغريزة لا الى الفهم والتعقل . وقد عثرت في احدى الجرائد على حوادث مدهشة عن الحيوانات البكم تدل على ما في طبائعها من الشعور بالخير او الشر او العداء او الظلم مما لا بد معهُ من عقل وفهم وتمييز فاقتطف منها ما يأتي : —

« روى العلامة مونتيبيه احد العلماء الباحثين في طبائع الحيوانات انهُ كان في حديقة مدينة سوز ابقار تستخدم في ادارة ساقية لري الحديقة وكانت كل بقرة تدير الساقية مائة دورة فاذا تمت المائة وقفت وابت ان تخطو خطوة واحدة الى ان تحل من الساقية

ومن هذا القبيل ما يروى عن بغال المركبات « الامنيبوس » في اورليان الجديدة فانها مكلفة بخمسة اشواط ذهابًا وايابًا وهي تقطع الاشواط الاربعة دون اوفى مظاهرة فاذا اتت الخامس اخذت تنهق الى ان تفك من المركبة

وقد حدث للسير اراغو الشهير ان العاصفة اضطرتهُ مرة للالتجاء الى فندق في احدى القرى الصغيرة فبينما هو يستدفئ بالقرب من الموقد اقبل صاحب الفندق بدجاجة يريد أن يشويها فشكها في قضيب من حديد ووضعها على آلة تدور بالتحريك . ثم التمس كلبًا صغيرًا عندهُ ليربطهُ الى الآلة فيدور حول الموقد وتدور الآلة معهُ لكن الكلب هرب منهُ واختبأ تحت الطاولة واخذ يتبع فتركهُ وذهب الى كلب آخر فربطهُ الى الآلة فدار مدة ثم وقف فجاء صاحب الفندق ونظر الى الدجاجة فوجدها على نصف شيء فك رباط الكلب وناداه الآخر الذي كان قد هرب منهُ فاقبل من نفسهِ فربطهُ في مكان رفيقهِ فاخذ يدور الى ان تم شيء الدجاجة . قال اراغو فعجبت لذلك وسألت صاحب الفندق فاخبرني ان لكل من الكلبين نوبة للعمل ولم تكن الاولى نوبة الكلب الذي هرب فانهُ ان يؤدي عملاً قبل ان يقوم رفيقهُ بنوبتهِ

ورأى العالم فوليه في احد ايام الشتاء وقد كسا الثلج وجه الارض عصافير تحوم حول قفص بليل وكان البليل يأخذ بمنقاره من طعامهِ ويوزع عليها وكان ذلك الاحسان دأبهُ الى أن جاء الربيع فوجدت العصافير الجياع من خيرات الطبيعة ما اغناها عن التماس الصدقة فانصرفت عنهُ لتناغي بنشيد المنة والشكران

كل هذه القصص وغيرها تدل على انهُ ربما كان لبعض الحيوانات عقل يدبرها . وفهم يقودها . وان الاعمال الصادرة عنها غير راجعة كلها الى الفطرة والغريزة خلافًا لما عليهِ المعول

في امر التجاوات الى الآن . ومن الادلة على ان للحيوانات نظاماً لا يصدر عن الغريزة وحدها ما نشاهده كل يوم من سفر الطيور التي تقطع من بلاد الى بلاد فانها تسير بترتيب ونظام تخضع لها خضوع الجنود الواحلة من معسكر الى آخر للنظام العسكري فتقطع المراحل وتجوب المئات من الفراسخ وهي تتعاضد وتتعاون الى ان تبلغ الغاية التي تطير اليها . اه .

ومن مميزات الغرائز ان اعمالها لا تأتي عن طريق التقليد او المحاكاة ولا تفرغ في قالب التجربة او الاعتياد بل هي افعال تصدر عفو القريحة ولا بغية للمرء من ورائها في منفعة ينالها او امل يجري وراء تحصيله . فالغريزة هي اندفاع اعمى يسوق الحيوان الى العمل في دائرة محدودة . وقد يطرأ على هذا العمل بعض التغيير والتباين بحسب التجربة والتوجه نحو التعقل ولكن هذا التغيير يتعدم بالمرة متى قويت الغرائز ورسخت عروقها في النفس . واذا كان الادراك في الانسان هو المحور الذي تدور عليه اغلب اعماله فانه في الحيوان ضيق النطاق يتقشر ويزول بظهور الادراك على وجه النقص او الكمال

ولنضرب مثلاً بسيطاً من امثلة الغرائز والفطر الحيوانية الكثيرة الوقوع عند صغار الاوز التي يحتضنها الدجاج مع فراخه ويخلطها بها في اكلها وشربها وعاداتها . هذا الاوز مع انقطاعه عن عشرة امثاله وبعده عنها تجده يسبح في الماء ويصفق بجناحيه فرحاً لرؤيته وربما عاش فيه زمناً طويلاً دون ان يكون لعامل القدوة ثمت تأثير عليه فهو في عمله مسوق بحكم فطرته وما ركب في اصل غريزته من حب الماء وحب الغوص فيه

وهناك مثال آخر يذهب باللب ويملك النفس لما فيه من غريب النزعة ومحكم الصنعة . وهو وان استمد مظاهره من الغريزة الحيوانية ونحت من اصول فطرتها الا انه لا يمكن التسليم باقتصارهِ عليها دون تيقن الوجدان او التماس هداية الفكر

خلايا النحل في اتساقها ودقة صناعتها وتشكيلها على التناسب تعدّ من غرائب الصناعة وكمالها . ومن الغريب ان النحل في بنائها لتلك الخلايا لا تحتاج الى استرفاد المعاون لها او يعوزها ايجاد نموذج تحاكيه وتنسج على منواله بل تسير في عملها على منهاج مستقر لا تتعداه هي او غيرها حتى ان الصغير منها يجري على هذه السنّة الطبيعية دون ارتياض ولا ممارسة مما لا يدع مجالاً للقول باتحادها مع بعض المقومات المجانسة لمنازع الادراك عند الانسان

احمد عبد الله